سلسلة نساء النبى ﷺ
(١٠)

المُهَاجِرَةُ
أُمُّ حَبِيبَةَ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِى سُفْيَانَ

رضى الله عنها

تأليف
محمد محمود القاضى

الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٥٦٢٠
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-265-655-8

دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر - القاهرة - السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦
٢٥١ش بور سعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

الهجرة إلى الحبشة

اشتد إيذاء قريش للمسلمين فى مكة، وأصبح كثير من المسلمين يعيشون فى شدة دائمة، فأشفق النبى ﷺ على أصحابه فأذن لهم فى الهجرة إلى بلاد الحبشة بعد أن علم أن بها ملكًا عادلاً لا يُظلم عنده أحد من الناس، فسارع كثير من الصحابة إلى الهجرة إلى الحبشة، وكان ممن هاجر عبيد الله بن جحش وزوجته أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان، وعبيد الله هذا ابن عمة النبى ﷺ أميمة بنت عبد المطلب.

وعلى أرض الحبشة عاشت رملة مع زوجها وابنتهما حبيبة بنت عبيد الله، التى كان كل من حولها من المسلمين يكنونها بها، ويقولون: «أم حبيبة» حتى صارت تعرف بهذا الاسم أكثر من اسم «رملة»، ولكن لم يطل الفرح بأم حبيبة فقد حدث أمر غريب وعجيب نغَّص عليها حياتها، فقد فاجأها عبيد الله يومًا بخبر مؤلم هو أنه اعتنق المسيحية، فصرخت فى وجهه وناقشته كثيرًا، ولكنه لم يستجب لها، وناقشه كذلك كثير من المسلمين الموجودين بالحبشة ولكنه أصر على رأيه، ففارقته أم حبيبة إذ لم يكن لمسلمة أن تعيش زوجة

لغير المسلم، ومات عبيد الله عقب ذلك.. فازدادت أحزان أم حبيبة، فقد كان الأمل يراودها فى أن يعود زوجها إلى الإسلام مرة ثانية.. ولكن هذا قدر الله، ولا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه.

ولعل ما يصور ما كانت تعانيه أم حبيبة من حزن وأسى بسبب ترك زوجها للإسلام، أنها قبيل هذا الأمر رأت رؤيا أفزعتها، تقول أم حبيبة: رأيت فى النوم كأن عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة وأشوهها ففزعت وقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة، إني نظرت فى الدين فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية، وكنت قد دنت بها ثم دخلت فى دين محمد، فقد رجعت إليها، فأخبرته بالرؤيا فلم يحفل بها، وأكبَّ على الخمر حتى مات.



لقد كان موت عبيد الله وهو على الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان نهاية أليمة حقًا، فالله سبحانه يقول:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]

وتذكرت أم حبيبة يوم أن دخل زوجها دين الإسلام، وكان عبيد الله قبل ظهور الإسلام يضيق بالوثنية ويسخر منها، وقرأ فى التوراة والإنجيل، فلما ظهر الإسلام دخل عبيد الله دين الإسلام، ويومها أسرع إليها يذكر لها أنه عرف مبعث محمد من التوراة والإنجيل، ودعاها إلى دخول الإسلام فاستجابت له، وهاجرت معه إلى الحبشة فى صحبة المهاجرين من المسلمين تاركين ديارهم وأموالهم وكل شىء خوفًا على دينهم ونجاة بأنفسهم من أذى قريش، فلما استقر بهم الأمر عند النجاشى ملك الحبشة واطمأنوا على أنفسهم وأتيحت لهم الفرصة كاملة لممارسة شعائر دينهم يترك زوجها دينه الذى هاجر لأجله ويعتنق دينًا آخر وهو النصرانية.. فما أعجب هذا الأمر!! لقد آمن النجاشى ملك الحبشة بالله وبرسوله محمد ﷺ

لما تبين له صدق هذا الدين، وترك النصرانية التى كان يعتنقها، وعبيد الله الذى عايش الإسلام وآمن به وظل ينتظر إشراقه فترة طويلة يترك الإسلام ويعتنق النصرانية!

أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان

كانت أم حبيبة من خيار نساء قريش، فهى ابنة أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فهى تلتقى فى نسبها مع رسول الله ﷺ فى جدهما عبد مناف، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس عمة عثمان بن عفان -رضى الله عنه-، وأخت أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان -رضى الله عنه-. وكانت أم حبيبة قد ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عامًا.

زواج أم حبيبة من رسول الله ﷺ:

كانت أخبار ارتداد عبيد الله بن جحش عن الإسلام ثم موته قد وصلت إلى المدينة، فقد كانت هناك مراسلات كثيرة تتم بين النجاشى ومعه المسلمون فى الحبشة ورسول الله ﷺ فى المدينة، وشعر النبى ﷺ بمدى الحزن الى كانت تعانيه أم حبيبة -رضى الله عنها- فأراد النبى أن يعوضها خيرًا عما حدث لها، فقرر أن يتزوجها،

ولعل الحكمة من وراء زواج الرسول ﷺ من أم حبيبة -رضى الله عنها- كانت بالغة، فأبو سفيان بن حرب والد أم حبيبة من أشد أعداء الإسلام، ولكن ابنته أم حبيبة دخلت الإسلام مع زوجها عبيد الله بن جحش، وقد تعرضت هى وزوجها إلى عنت قريش واضطهاد ذويها، فاضطرت للهجرة إلى الحبشة مع زوجها، ولكن زوجها تنصر وهو فى الحبشة وبقيت هى على الإسلام، وهكذا فقدت أهلها وفقدت زوجها وهى مغتربة وعزَّ عليها الملجأ، وها هو ذا قلب الرسول ﷺ ينفتح لها، ويداوى جراحها، ويكافئها أسمى مكافأة على موقفها الرائع، ويكون بيت الرسول ﷺ مفتوحًا لها لاستقبالها بعد أن فقدت بيت الوالد وبيت الزوج.

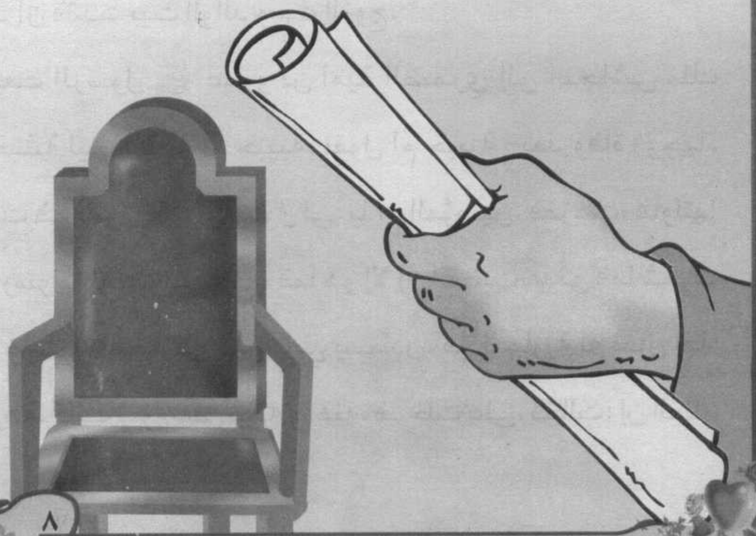
وبعث الرسول ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة ليخطب له أم حبيبة، تقول أم حبيبة -بعد وفاة زوجها: رأيت فى النوم كأن آتيًا يقول لى: يا أم المؤمنين، ففزعت، فأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجنى، فما هو إلا أن انقضت عدتى فما شعرت إلا ورسول النجاشى على بابي يستأذن، فإذا جارية له يقال لها: أبرهة، كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت علي، فقالت: إن الملك

يقول لك: إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجكه. فقلت: بشرك الله بخير. قالت: يقول الملك: وكلى من يزوجك. فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكلته.

وعبرت أم حبيبة عن فرحتها بخبر زواجها من رسول الله ﷺ بأن أعطت أبرهة سوارين من فضة، وخواتيم كانت فى أصابع رجليها، وخدمتين كانتا فى رجليها.

وعقد النجاشى اجتماعًا فى قصره، وحضر جعفر بن أبى طالب ومن هناك من المسلمين، فخطب النجاشى فقال:

الحمد لله الملك القدوس السلام، أشهد أن لا إله إلا الله وأن



محمدًا عبده ورسوله، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم، أما بعد، فإن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها أربعمائة دينار.. ودفع الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها.

ثم خطب خالد بن سعيد بن العاص، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد، فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوَّجته أم حبيبة بنت أبى سفيان، فبارك الله رسول الله ﷺ.

ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشى: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، وكان قد صنع وليمة كبيرة احتفالاً بهذا الحدث السعيد، فجلس الجميع وأكلوا.

وأرادت أم حبيبة أن تزيد فى مكافأة أبرهة خادمة النجاشى فعرضت عليها خمسين دينارًا من مهرها الذى أخذته، ولكن أبرهة رفضت قبول المال، بل ردت لها كل ما أعطته لها من قبل وقالت لها: إن الملك أمرنى بذلك، وقد أسلمت لله، وحاجتى إليك أن تقرئى

رسول الله ﷺ منى السلام، ثم قدمت أبرهة لأم حبيبة هدايا ثمينة من عند نساء الملك.

وكانت أبرهة كلما دخلت علي أم حبيبة وهى تجهز نفسها للسفر، تقول لها: لا تنسي حاجتي إليك. قالت أم حبيبة: فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة، وما فعلت بي أبرهة، فتبسم رسول الله ﷺ وأقرأته منها السلام، فقال ﷺ: وعليها السلام ورحمة الله وبركاته.



أم حبيبة فى بيت النبى ﷺ:

وبعد أن انتهى الرسول ﷺ من فتح خيبر فى السنة السابعة من الهجرة، جاءه الخبر بوصول العروس أم حبيبة فى صحبة شرحبيل بن حسنة قادمة من الحبشة، ومعهم من كان هناك من المسلمين المهاجرين وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب، وكان النجاشى قد جهزها وأرسل معها بهدايا ثمينة لرسول الله ﷺ، وفرح النبى ﷺ بمقدم المسلمين من الحبشة ومعهم أم حبيبة وقال: لا أدرى بأيهما أسر؛ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

ولما بلغ أبا سفيان خبر زواج النبى ﷺ من ابنته أم حبيبة بارك هذا الزواج وأعلن رضاه به قائلاً: ذاك الفحل لا يقرع أنفه.

وبنى النبى ﷺ حجرة لأم حبيبة إلى جوار حجرات زوجاته، وانضمت أم حبيبة إلى ركب أمهات المؤمنين، وكان عمرها لما قدمت المدينة ودخل بها الرسول ﷺ بضعا وثلاثين سنة، وتعد أم حبيبة من بنات عم الرسول ﷺ، وليس فى أزواجه من هى أقرب نسبًا إليه منها، ولا فى نسائه من هي أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهى بعيدة الدار أبعد منها.

وكانت - رضى الله عنها- من العابدات الورعات، ولعلنا نلحظ ذلك

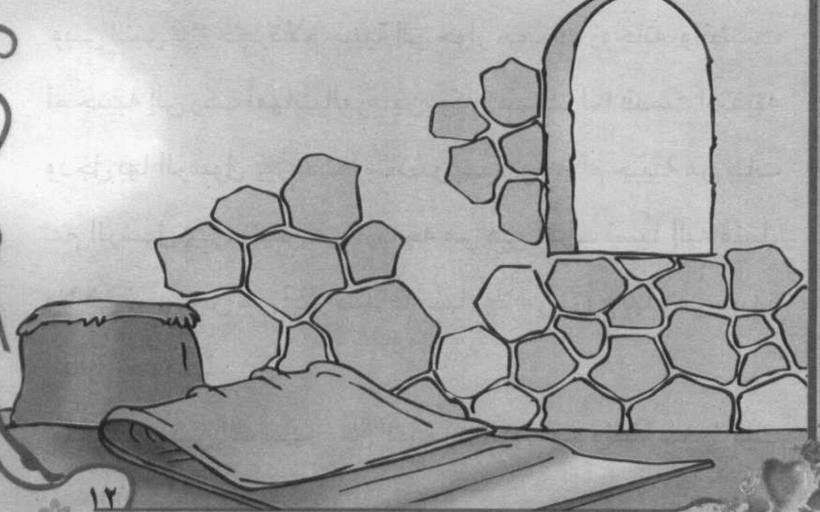
من خلال بعض الأحاديث التى روتها عن رسول الله ﷺ، فقد قالت:

قال رسول الله ﷺ: «من صلى فى يوم وليلة اثنتى عشرة ركعة بنى الله تعالى له بيتًا في الجنة» قالت أم حبيبة: فلم أزل أفعله.

وروت أيضا: قال رسول الله ﷺ : «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا ذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».

وقالت: قال رسول الله ﷺ : «من صلى قبل الظهر أربعًا، وبعد الظهر أربعًا، حرمه الله على النار».

وقالت: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلَّق سبعين. فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث.



وكانت -رضى الله عنها- لا تخشى فى الله لومة لائم، فاق حبها لله ورسوله كل شىء، فعندما قدم أبوها أبو سفيان بن حرب المدينة ليؤكد صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ بعد أن أحدثت قريشٌ أمورًا تخل ببنود العهد، وقرر النبى ﷺ غزو مكة، فلم يقبل النبى ﷺ منه، فقام أبو سفيان فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنيَّة، أرغبت بهذا الفراش عني، أم بي عنه؟! قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية، لقد أصابك بعدي شر.

لقد كانت تفهم حقيقة قول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]

ولذلك كانت -رضى الله عنها- من أكثر الناس فرحًا بإسلام أبى سفيان ودخوله فى رحاب الإيمان فى أثناء فتح مكة، وكانت ممتنة لرسول الله ﷺ فى عفوه وصفحه عن أبى سفيان، وإكرامه لمكانته

فى قريش، عندما قال ﷺ: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن..

وزاد النبى ﷺ فى إكرامه عندما جاءه أبو سفيان وقال له: يا رسول الله، ثلاث أعطينهن! قال النبى ﷺ: «نعم» فسأله أبو سفيان: تزويج ابنته، وأن يجعل معاوية كاتبه، وأن يأمره فيقاتل الكفار كما قاتل المسلمين.

وزواج النبى ﷺ من أم حبيبة قد كان تقرر قبل ذلك وأبو سفيان ما زال مشركًا، وكان الولي غيره، وإنما قال النبى ﷺ له: نعم، تطييبًا لقلبه، أو أن مرادك قد حصل وإن لم يكن حقيقة عقد، وقال بعض الشارحون: إنما كان أبو سفيان يلتمس تجديد العقد، وجعل النبى ﷺ معاوية كاتبا له، وذهبت عينا أبى سفيان فى الجهاد، إحداهما يوم الطائف والثانية يوم اليرموك وكان يومئذ تحت راية ولده يزيد.

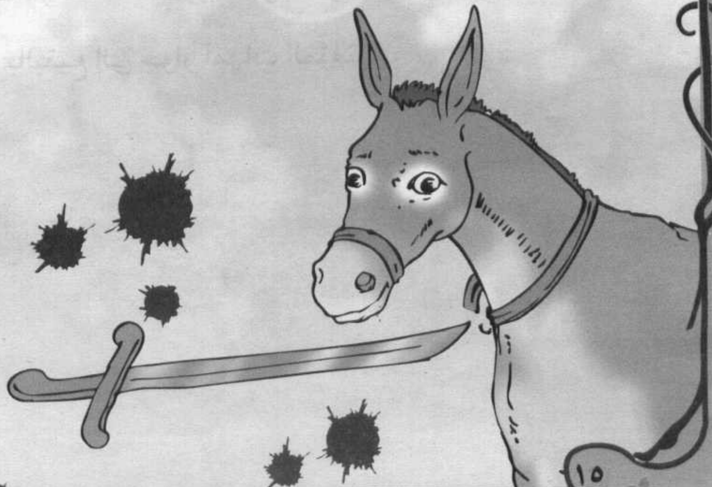
أم حبيبة بعد وفاة الرسول ﷺ:

واصلت أم حبيبة طريقها فى العبادة والطاعة بعد وفاة النبى ﷺ، محتفظة بمكانتها السامية فى قلوب المسلمين جميعًا.

وكانت - رضى الله عنها- من أوائل من سارع إلى نجدة خليفة المسلمين عثمان بن عفان -رضى الله عنه- عندما حاصره الثائرون

فى بيته، ومنعوا عنه الطعام والشراب، فجاءت أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة (إناء صغير يوضع فيه الماء)، فقيل: أم المؤمنين أم حبيبة. فضربوا وجه بغلتها، فقالت: إن وصايا بنى أمية إلى هذا الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل. قالوا: كاذبة، وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فنفرت البغلة بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها، فتعلقوا بها وأخذوها، وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها.

وقد كان لأم حبيبة حرمة وجلالة، ولا سيما فى دولة أخيها، ولمكانه منها قيل له: خال المؤمنين، وقد قدمت دمشق زائرة أخاها معاوية عندما كان أميرًا للمؤمنين.



وفاتها:

وحانت لحظة فراق أم حبيبة للدنيا قادمة إلى ربها لتلقى محمدًا ﷺ عند ربه، وكانت حريصة على أن تلقى ربها دون أن يكون فى نفسها من أحد شيئًا، أو أن يكون لأحد فى نفسه شىء منها، فدعت أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها-، وقالت لها: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك، فقالت عائشة: غفر الله لك ذلك كله، وحللك من ذلك. فقالت أم حبيبة: سررتنى سرَّك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك.

وكانت وفاتها فى السنة الرابعة والأربعين من الهجرة النبوية الشريفة، وكانت قد قاربت الرابعة والسبعين، ودفنت - رضى الله عنها- بالبقيع إلى جوار أمهات المؤمنين.

